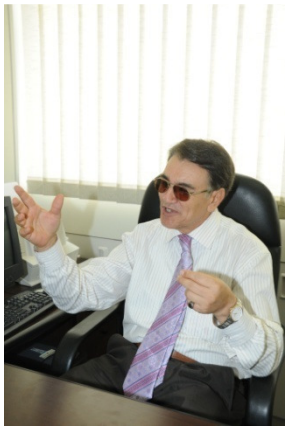

المكان والمكانة (تقديم لمجموعة الزين نور الدين القصصية)

د/ عبد القادر فيدوح

فبراير ٢٠٠٤

في مكان صوفي وخلاب من موقع رمال الجزائر الذهبية، تتربع مدينة بشار ــ المكان والمكانة ــ الصرح الثقافي التاريخي الشامخ، طموحها مثل أي مدينة جزائرية، علو السماء، وعزيمتها رسو الجبال، وعزمها شموخ الامير عبد القادر. من على هذا الصرح التاريخي والجغرافي اليانع، يلوح لك منظره شاهق الركح، المزين بالمناظر الطبيعية الصحراوية الخلابة، وفي أجمل المواقع زينة وبهاء، وأفلاذ الأرض المَقْنَاة. كان ذلك ما علق بذاكرتي عندما زرت بشار منذ ما يقرب من خمس عشرة سنة خلت في مهمة ثقافية، كنت ساعتها قد قرأت في عيون أبنائها البررة، وهم يتوافدون إلى قاعة المؤتمر الذي ذهبنا من أجله، يحومون حول هده القاعة كتحويم الفراشات على رونق الجلسان، عيونهم ملئ بالنظر الحصيف، تشعر وكأنهم يمتصون رحيق الأمل من نبع الفضاء المترامي في رعشة المتألق، الحافل بالتلذذ. وفي المقابل نجد نخبة، تقودها خبرة عالية، وتشد بيدها عقيدة الإخلاص، وعزيمة الجهد، وسداد الرأي، وتدبُّر التفكير، تحاول أن

تقوم بعمل يوضَع موضع الدقة في العطاء، ماثلة ــ بالأخص ــ في نخبة من إنارة قلوب الأبرار من مبدعي بشار الماجدة، كل يكفل بتحقيق أغراض المعرفة السامية، وكل يسعى الى إعطاء نهضة علمية مباركة من مكانة بشار التي تتسم بأرج رحيقها الصافي.

ولعل من أريج أزاهير ثقافة بشار الزميل **الزين نورالدين**، القاص، والباحث الآفق، الذي طلب مني أن أقدم له مجموعته القصصية: "**جنون في منتصف الذاكرة**".

وقبل أن أتطرق الى موضوع التقديم، أشد بحرارة على الأنامل الغضة التي تصخُّ عزيمتها على إخراج كل ما يختلج مشاعرها في تجارب إبداعية تتربع على عرشها " **المحاولة** " وكل محاولة قابلة للتطور والتطوير، وفي هذه الحال لا نملك إلا أن نشجعها، ونبارك لها خطواتها. ولعل أجمل ما في هذه المجموعة أنها مبادرة طيبة في هذا الزمن الموبوء الذي لا يولي اهتماما للكلمة إلا بما هي فظة.

وقبل ذلك أيضا عليّ أن أنوه بعلاقتي مع الزين نورالدين صاحب هذه المجموعة القصصية الذي لم التق به إلا مرة واحدة فقط، وكانت على عجل، ومع دلك فقد تعزز التواصل مرات عديدة عبر لقاء الكلمة بالكلمة بما تثمره من عطاء في أوضاعنا الثقافية، فلقد قرأت ــ وما زلت أقرأ ــ له الكثير بما يجود به قلمه، شأنه شأن الجيل الثالث بغير ما اجترار لما أنتجه الجيلان الأول والثاني لما بعد الاستقلال.

أما إذا أردت أن استدعي ذاكرتي في أثناء لقائي به ذاك، فكان أول ما التقطته بصيرتي عنه وفراستي فيه ــ آنذاك ــ حين قلت في نفسي لعله ينم عن طاقة ذات كفاءة عالية.

أما الوجه الثاني الذي توقدت به ملامحي له، فهو اهتمامه الدقيق بالأشياء، بخاصة ما يصدر منه من محاولات نقدية جادة ــ أذكر أنني كنت أول المستهدفين منها فيما بعد، وقد سرني ذلك على الرغم من اختلافي مع وجهة نظره ــ فما كان مني إلا أن رنوت الى آرائه النقدية رنوا، فتفرست بها إبداعا، وتوسمت منها جدة، واستشرفت بها جدية.

أما ثالث ما يشد الحصيف الثبيت، والقارئ الجزل فهو جرأته التي تضع كل يقين موضع سؤال ــ بعقل حافظ ــ ولسان لافظ، وبصر لاحظ، وهو كغيره من الجيل الثالث يعتمد الذاكرة التجريبية التخيلية في عطائها المعرفي في مقابل الذاكرة العيانية التي سادت ردها معتبرا، وأسهمت من دون وعي في واقع محتويات وعينا لإظهار الذات المتعالية، أو الوجود المتعين.

من أجل ذلك، نجد هذا الجيل يعطي الحيز الأكبر لكامن الأغوار المظلمة بفعل الكميه المهيمنة على الإبداع المروج له، إعلاميا، رغبة في تكميم الرؤيا الإبداعية، والتغلب بحجم هذا الترويج ومساحته الشاسعة على مساحة الحلم الضيق في تشكيل الصورة لدى الجيل الصاعد؛ لإظهار مخزون جماليته التجريبية، وتشكيل لمساته في هذا الوجود، وإذا ما رجحنا جمالية التجريب التي تمتلكها

حواس كتابات الجيل الواعد وفق مقاييس التناسب والتناغم مع مجريات الأحداث فان صورهم الفنية، من منظورنا تخضع لعدة افتراضات:

المنظور الأول: سوداوي/ رافض وهو تصور إبداعي متفق عليه في الحقبة الزمنية المرتبطة بالتحول، والداعي الى طرح السؤال: **لِـــمَ ؟.**

المنظور الثاني: مختلف حول الدلالة المحورية، والمبدع في هذه الحالة يعيش زواج الأضداد، فهو إما كونه يتنصت لنداء الذات، أو ينجز لنداء الواجب الافتراضي.

أضف الى ذلك أنه في المنظور الأول المكوَّم ــ على الرغم من أنه ــ يدل على الظلامية والسكون، بما هو سلب لقوة الفرد واختفاء لسلطة نور الفعل المستمر، فالرغبة في التنصت الى الذات توحي بالرفض الدائب ــ المتسبب ــ ضمن وضع حركية الفعل الذي يمدد زمنيته ببطء؛ لذلك لجأ هذا الجيل الى مواجهة زمن الفعل الساكن في طول امتداده النفسي، فأحس بأهمية التحول المنتظر منه، وهو الوجه الآخر لما ينبغي أن يكون عليه وجوده في تناغمه واستمراره القابل للامتداد الطبيعي لسنن الحياة، وفق حاصل التفاعل التصاعدي للواقع الاستشرافي.

إن هذا الاتجاه التطويري المتوالي مسند في إبداع الجيل الواعد الى **الانفتاح /النور/الأمل المشرق،** وهو في هذا تعزيز لوضع التنوير خارج حدود الإقليمية، وكأنما هناك بصيصا من الأمل لا محالة قادم في غمرة ما انتابنا من

ظلام خلال العقدين الماضيين بخاصة العشرية الأخيرة من السنوات التسعين، قبيل الدخول في الألفية الثالثة، أو كأنما السكون يتضمن تنزيهه في ذات الحركة، وفي هذا اختلاف واضح بين عمق السوداوية التي حالت من دون بريق الأمل، أو كأنما هذا الجيل قدر له أن يكون نقطة صفاء في غسق دامس، وفي هذا كله إشعاع لأفق انتظار مشرق، فناسب الترقب المرموز به في الواعية الإبداعية للمعنى المطلوب بالأمل المرتقب، المقترن بالغد المستنير.

ولم تكن الأوضاع على هذه الحال التي آلت إليه من قبيل المصادفة، أو الاختيار، وإنما جاءت كذلك امتثالا للحديث القائل:" **هدنة على دخن** " حتى ولو كان ذلك عن غير وعي، أو بمقتضى سنن تجدد الحياة، وبدوافع متطلبات الواعية الجمعية لتعبر عن التحدي ــ منه على سبيل المثال ــ تحدى هذا الجيل صعوبات واقع متناقضات الحياة. فلا غرابة إذًا إن اتصل الجيل الثالث مع ذاته وأصاخ لدوافع مشاعره بعد أن فقد الأمل في تخطي الجبال الراسيات، والوجوم المانعة، والوصية على كل ما هو آت والتي لم تفسح المجال للبراءة بالتعبير عن طموحاتها، فكانت ردة فعل هذا الجيل أن امتطى صهوة الغربة الى الذات، بحثا عن سر ما يليق بها، فكان أن حفر بكلمات أقاحي أمره، وكأنما حفر على الانفصال الوجودي اللافظ له، فرسم حلمه بالاتصال الآمن له بعد أن سئم من "غرس الزهر في حجر الصلد".

واللافت أن إبداع هذا الجيل يقوم على تباين تزواج الأضداد في رسم **الصورة/السمة** بوصفها بنية دالة افتراضية لا تعبر إلا عن ذاتها، من هنا كان هاجسه متوجسا، مجربا، في مواقفه باستمرار، ينور ولا يطمئن لشكل أو لنمط

واحد، حاملا راية السؤال. وفي هذا اختلاف واضح بين عمق السوداوية التي ترعرع فيها، وكنه البراءة المتشوِّفة التي كانت تَعد شقاءها في مصدر هامشيتها وغربتها.

وبالفعل، إن ما يميز إبداعات هذا الجيل كونها شعلة جديدة، وبتجربة جديدة، ومتميزة، على غير التجارب السابقة في "مصادرتها المطلوب من قبيل اعتبار المقدمة هي النتيجة". ومن هنا ــ ايضا ــ تباعدت العلاقة المستمدة من بيان علة الاختلاف في الاذواق والتصورات.

وإذا تطلعنا ــ على سبيل المثال ــ إلى ما اشتملت عليه مجموعة الزين نورالدين القصصية " **جنون في منتصف الذاكرة** "ــ لأدركنا أهمية التطابق بين القيمة الجمالية والقيمة المعنوية، وهو تطابق يوحي بالتناغم الحاصل بين الرغبة وتكسير المنهجيات السائدة.

وهذا يعني أن فضاء الزين نورالدين يمتلك الإمكان نفسه الذي يمتلكه فضاء تصور جيله للإبداع، ومن أعماق هذه الأقلام الفتية تشكلت التجربة الجديدة، مفجرة سلاسل القيود الرتيبة، حتى لكأن عرش محتوياتها ــ وقيمة ما تشمله من إنجازات سائغة مع متطلبات العصر ــ تبدو مفرِشة أجنحتها على الآمال والآفاق الرحيبة.

وإذا كنا لا نستطيع إظهار ما يختبئ خلف هذه المجموعة القصصية من معالم فنية، وقيم موضوعية في هذا المقام، **مقام التقديم/ التصدير** بما يليق بالعين

الناقدة؛ فلأن الطريق الى ذلك يقتضي وضعها تحت محك البحث والدراسة، وليس المجال هنا لتبنيه أو تقصّيه، وإنما حسبي حسبيه عرض هذه المجموعة بظهوراتها؛ لأن المقام يستوجب مقال العرض، وليس مقال الدراسة والتحليل.

إذًا، ليس المقام هنا للحديث عن تجربة تكرس جهدها في بداية شق طريقها الواعد، ولا الفرصة سانحة لتحديد السمات الدقيقة لمكونات خصائص المجموعة القصصية: " **جنون في منتصف الذاكرة** " التي تشكل وثبة نوعية في بداية مسيرة النشاط الإبداعي للقاص الزين نورالدين، فالإطار القصصي في هذه المجموعة يفرض على القارئ طريقة خاصة في بناء وحدة الحدث، وترابط أجزائه.

والمجموعة تنحو إلى حصر واقع الحياة المركبة التعقيد، ومن هنا تأتي تجربة " **جنون في منتصف الذاكرة** " لتحتوي مساحة هذا الواقع المرير. وقد أدت تراكيب القاص المتنوعة مثل البناء والخيال ــ وبخاصة اللغة ــ دورا بارزا في استجابة القارئ لها من حيث كونها تؤسس لإثارة السؤال، أكثر ما تعنى باستخلاص النتيجة.

وإذا كانت هذه المجموعة تعتمد الفعل التجريبي؛ فلأنها تمثل مكابدة اليقين العميق للبحث عن المعنى الوجودي الملتحم بالواقع الاجتماعي. ولعل هذا النوع من التجربة يعد محاولة للتعويض عن العلاقة الإنسانية التي افتقدها مجتمعنا في السنوات التسعين؛ بسبب ما آلت إليه الجزائر باحتضانها المجهول. أضف الى

ذلك أن هذه التجربة تعد شعورا طبيعيا تستلطفه الذات الظمأى، رغبة في معانقة الكلي، ومحاولة الكشف عن الحقيقة.

إن ميل القاص الزين نورالدين إلى هذا النوع من الكتابة أمر يجب أن تكون له دوافعه ومسوغاته السياسية، والاجتماعية، والثقافية، والفنية، من واقع مرهون بمستجدات الألفية الثالثة التي تميل في عطائها الحضاري إلى السرعة والتكثيف والانغلاق في مجمل تداعيات الصورة. من هذا المنظور كان القاص يلجأ إلى العمق، انطلاقا من التوغل في الذات والخصوصية الخيالية، وهو طموح يضعه القاص نصب عينيه من أجل تجسيد شمولية الفكرة التي تعتمد على المشاهد، واللوحات، وتجاوز الوجود الفعلي للأشياء، وهي مهمة تنحصر في فهم تساؤل الخطاب المستمد من تساؤل الواقع.

لقد جاءت "**جنون في منتصف الذاكرة**" لتجد لنفسها فسحة في الحيز الإبداعي المترامي من محيط يعيش **مفارقة الخيبة/الأمل**، ومع ذلك فهي بذرة ترغب في تجسيد الحلم والرغبة، وتأسيس الفعل من أجل أن يكون جيل القاص قادرا على تحقيق طموحاته، في مقابل تجنب التعثر، والوأد، حتى لا يقع فريسة حصاد التسعينيات؛ حيث كان كل شيء مجرد وهم، وحيثما تَلفَّتنا كانت تلاحقنا الموجة السوداء، وكلنا توق الى معنى الوطن.

وفي هذه التجربة ما يثبت أن شيئا ما يمكن أن يكون. ولنا حين نلجأ الى قراءة " **جنون في منتصف الذاكرة** " ما يطمئن قدرا من البال، ويدعم الآمال في تشجيع مسيرة الزين نورالدين الإبداعية، شأنه في ذلك شأن جيله من الشباب

الواعد الذي نأمل منه أن يضع من آيات البيان، ومُبَيِّنات الفنون، ما يزين وجه هذا الوطن الغالي، وينير قلوب الأبرار لبناء صروح مجد الجزائر.

فبراير ٢٠٠٤